المرأة في الجاهلية والاسلام

إن تاريخ تفوق المرأة العربية ، ينسحب إلى ماقبل الاسلام ، بالرغم من وضعها الحقوقي القاصر ، على مدى الفترة التاريخية ، التي سبقت الدين الحنيف مباشرة . وبعض الحوادث الثابتة باليقين التاريخي ، تصلح الى حد بعيد ، للاستنتاج ، بأن شيئاً عظيماً كان يعتلج في صدر المرأة العربية ، وأن مركزاً مرموقاً كانت تتمتع به . وأقدم الاقوام العربية ، كسبأ وحمير والتدمريين ، أتاحوا للمرأة فيهم مقاماً حسناً ، حتى لقد نبغ منهن كثيرات في السياسة والحرب والأدب .

لقد كانت المرأة تشرف على الحياة العامـة ، فتقري الضيفان وتصرف شؤون الرعاة ... وقد تدخل المعركة ، أو تراقبها ، فتلهب صدر الرجل ، وتغريه بالتفوق البطولي ؛ كما أن تدخلها في الحياة الأدبية ، كان يلهم فكره ، ويريده على الخلق الفني . ومهما كان غرض الشاعر العربي في قصيدته فكان لاغنى له عن بضعة أبيات من الشعر يخلد بهن حديث هوى أو موعد غرام !

وبعد فالعربي مزيج من حب وحرب ، وهكذا كانت المرأة

Obeikandl.com

ينبوعاً ثراً في تاريخ العرب لأدب الحب وأدب الحرب . وعن ذلك أيضاً ، أمكن القول بأن عرائس الحب الجاهلي ، كن سبباً قوياً لنتاج فني متفوق ، أو لحماسة بطولية منقطعة النظير .

ولا يندفع هذا القول ، بسرد الواقع الحقوقي السيئ الذي كانت تعانيه المرأة في الجاهلية ، فالظاهر أن ثمة ضرورة قصوى ، لوجود هذه التناقضات ، بين وضع المرأة الحقوقي ، وبين مركزها الاجتماعي. ذاك أن الجاهلية كانت كما نرى ، في مرحلة انتقال من عصر الامومة الزاهر بالنسبة للمرأة ، إلى عصر الابوة عصر الاستبداد بها ، والتحكم فيها ... ومما يدل على صحة هذا الرأي الذي نذهب إليه ، هذا الصراع المنيف في الواقعات الاجتماعية التي كانت تسود الجاهلية . ولما كنا قد التزمنا في هذه الدراسة ، خطة البحث العلمي ، فاننا لانرى إلى تلك الظاهرات الاجتماعية كحوادث شاذة ، أو سخيفة ، وإنما نرى إليها كوقائع ضرورية ناتجة عن اسباب تاريخية تطورية .

حدث ابو الفرج في الأغاني أن النساء أو بعضهن كن يطلقن الرجال في الجاهلية ، وحسبهن في ذلك أن يحولن فناء أخبيتهن دونهم . وحدث ابو هلال أن عمرة بنت سعد ، ومارية بنت الجعيد العبدية ، وعاتكة بنت مرة السلمية ، وسلمى بنت عمرو بن زيد النجارية ، وهي أم عبد المطلب بن هاشم ، اذا

تزوجت الواحدة منهن ، واصبحت عند زوجها ، كان أمرها أليها فاما تحول فناء خبائها دونه ، وإما تعالج له طعاماً إذا أصبح ! .

كما أن هذا الفخر المدلّ بالخؤولة ، وهذه النسبة الكثيرة إلى الأم في قولهم : عمرو بن هند مثلاً ، أو أبناء ماء السماء ، وهي ماوية بنت عوف بن جشم ملكة العراق ، وهذه الانكحة الشاذة التي عرفها العرب كالرهط وهو أن يجتمع أكثر من رجل إلى امرأة واحدة ، وكالخدن وهو الزنا بالسر ، وقد نهى عنه القرآن الحكيم ، وكالمتعة وهي الزواج إلى أجل معلوم . إن كل ذلك ليدل دلالة لاجدل فيها ، على أن نظام الأمومة لم يكن قد جرر ظلاله نهائياً عن الأقوام العربية الضاربة في بيداء الجاهلية. كما أن حكاية الوأد ، وهو أن الرجل اذا ولدت له بنت ، حفر لها حفرة ودفنها فيها ، وهذا الالحاح العنيف على حفظ الانساب الذي يفتخر به بعض الجاهليين ، وعدم توريث المرأة فيهم ، وتمدد الزوجات الذي لم يدركه حصر ، وزواج السبي ، وزواج الاستبضاع وهو أن يستولد الرجل امرأته من سيد قرم ، كما أن هذا الاستهتار بالمرأة المتمثل في هذه الراوية التي فرغ المؤرخون من صحتها : وهي أن الرجل ليموت فيقول وليه أنا احق بامرأته ، فان شاء تزوجها أو باعها ؛ ان كل ذلك أيضاً ليدل دلالة صريحة على أن نظام الابوة كان قد دخل المجتمع العربي ، منذ فترة وجيزة . فالجاهلية اذن كانت تتخبط في فوضى الانتقال . في هذه الفترة

الانتقالية للاقوام العربية ، من نظام الأمومة الى نظام الابوة ، ظهر الاسلام السمح ، فلاحظ التناقضات البعيدة ، بين وضع للمرأة ممتاز ، وبين وضع آخر لايوصف ابداً بالامتياز ، فانعكست عليه واقعات العصر ، ليتمثلها وينبعث عنه التشريع السامي الناظم لكل الواقعات الاجتماعية والحقوقية المعروضة في المجتمع العربي آنذاك .
لقد نالت المرأة العربية أهليتها غير منقوصة ، وصارت صالحة لاكثر التصرفات القوليـــة والفعلية . وكادت المساواة تحدث بينهـــا وبين الرجل !.

أما الاسلام ، ثورة العرب الكبرى ، فقد اعطى المرأة من الحقوق سواء أكانت أماً ، أم زوجة أم بنتاً ، مالا يستوعبه السفر الضخم ، فضلاً عن الرسالة الموجزة . غير انا نشير اشارة عابرة إلى بعض الحقوق التي منحتها المرأة على يد الدين الحنيف :

لقد حرم الاسلام الوأد : « ولا تقتلوا أولادكم ، خشية املاق ، نحن نرزقهم واياكم ، إن قتلهم كان خطأ كبيراً » .

وقرر لها شيئاً من التركة : « يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين ، فلهن ثلثا ماترك وان كانت واحدة فلها النصف » .

وأوصى بعاشرة المرأة بالمعروف : « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن ، فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .
ومنع عضل الولي : « ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » .

وشرع لها المهر والنفقة ، وسمح لها بالمتاجرة وممارسة مهنة تمد الرزق ، إذا لم يكن لها عائل ، وأقر كفاءتها في القضايا المدنية ، فصارت قادرة على التملك والبيع والشراء والهبة والوصية والشهادة والابراء والايصاء والوكالة ...

ولم ينسَ العلم بل أقره لها ، وجعله واجباً عليها . وقد تسمو تلك الحقوق التي منحها الاسلام المرأة إلى حد حق ممارسة القضاء ، وحق الانتخاب ! .

وهكذا انسجم التشريع السمح ، مع الآمال العريضة الجائشة في نفس المرأة العربية المتفوقة بالقوة ، فكان لزاماً أن تحدث بالفعل ، ولادة المجد والبطولة والحق .

وكانت دفقة نور باهر ، وساد ظلام دامس . وتلك الآمال العذاب سرعان ما انقلبت إلى خيبة قاسية ، إذ بين عشية وضحاها جردت المرأة من أميز الحقوق التي منحها الاسلام ، وأقصيت عن ميدان الحياة العملية لتصبح ملكة متوجة على جدر أربعة تسور بضعة أمتار مربعة من الارض . وتراجعت تلك الحقوق من ميدان الحياة العامة ، لتدفن في بطون التواريخ الأدبية وبعض الكتب الفقهية ، فتبقى بينة واضحة تنطق بما كان عليه تشريعنا من علم وهدى ، وسمو وانطلاق .

ويذهب أكثر الباحثين إلى تعليل ذلك ، بظاهرة التسري

المتفشية في المجتمع العربي آنذاك . ولآراء الفقهاء الجامدين الذين منعوا المرأة من ممارسة حقوقها الممتازة ، وللعادات والاعراف الأعجمية التي دخلت الدولة العربية بسبب الفتوحات الكثيرة وتمازج الحضارات . ونحن مع احترامنا لآراء الباحثين على ضوء هذه الاعتبارات ، نرى أن ليس فيها كبير غناء :

فآراء الفقهاء لم تكن سوى صدى ، لأفكار العصر . وميل العربي إلى اقتناء الجواري والمغنيات والسراري ، لم يكن سبباً لاستبعاد المرأة العربية عن الحياة العامة ، وإنما كان هذا الميل نتيجة لسبب ضخم غفل عنه أكثر الباحثين والمؤرخين !.

لقد عرفنا من سياق البحث التاريخي ، أن الاقوام كلها تستوي مع بعضها في الخضوع لمبدأ التطور الطبيعي ، وانها كلها قد مرت بنظام الأمومة ، ثم نظام الابوة ، وأن بعضها الآن قد دخل نظام الامومة والابوة ، أو نظام التعاون المشترك بين الجنسين في سبيل خلق الانسان الكامل . وعرفنا أيضاً أن العرب يوم ظهور الاسلام كانوا في مرحلة انتقال من نظام الامومة الى نظام الابوة . وكانت إرادة الاسلام إلى نقلهم لنظام المساواة أو ما يشبه هذا النظام !.

بذلك حدث أن الاقوام العربية ، لم تستوف حقها من التطور الطبيعي ، ولم تجر على سنة الاقوام الاخرى باجتياز المراحل

التاريخية التدرجية . وما هي الا فترة وجيزة ، حتى ينطوي صدر الاسلام ، لينطلق المجتمع العربي لممارسة حقه كاملاً بنظام الابوة الكامل ! .

بذلك يتضح أن ظاهرة التسري ، والتعدد وغيرها لم تكن السبب في ابتعاد المرأة عن الحياة العامة ، وانما كانت نتائج صحيحة واكيدة لنظام الابوة ذاته . ومن يدرس المجتمعات التاريخية كلها يلاحظ هذه الظاهرات في كل مجتمع ساده نظام الأبوة ...

بيد أن هناك سبباً آخر ، قوياً ايضاً ، جعل المرأة العربية لاتستفيد من كل الحقوق التي منحها الاسلام لها ، نحاول تفسيره فيما يلي :

إن الاوضاع الناظمة للمجتمعات البشرية ، تنقسم الى زمرتين كبيرتين : الاولى ، أوضاع معنوية تتمثل في مجموعة التشاريع والقوانين ، والثانية أوضاع مادية تنطوي على وسائل الحياة الانتاجية والمواد المنتجة ، والاقتصاد العام .

والظاهر أن الانسجام بينهما ضرورة قصوى في سبيل تحقيق النفع الاجتماعي ، فلو فرض وان الانقطاع حدث بين الزمرتين : كأن تطورت الحياة المادية تطوراً بعيداً صاعداً ، بينما جمدت التشاريع على وضعها السابق ، أو كأن خلقت تشاريع سامية في مجتمع ذي

أوضاع مادية قاصرة ،فان ناقضاً هاماً ، سيؤول حتماً إلى احدى نتيجتين :

إما حركة عنيفة تسوق إلى ثورة عارمة ، تهز البناء الاجتماعي لتعيد اليه الانسجام الضروري ، للاستقرار والهدوء ، وإما جمود موقت تفرضه ظروف خاصة ، فلا ينتفع المجتمع بالتالي من نمو احدى الزمرتين ، لقصر الزمرة الاخرى عن اللحاق بهـا .

إن عقل الرجل اليوم قد نما في الشؤون المادية والطبيعية ، بسرعة وعمق ، أكثر مما نما فكره في التشريع والقانون ، فنتج عن ذلك تقدم في الاقتصاد بعيد ، وتقهقر في الاخلاق مريعة . فان أكثر الأزمات الهائلة التي تعصف اليوم بالأمم ، والآلام القاسية التي يعانيها الافراد ، والمرأة فيهم ، في أنحاء هذه الارض من مرض وفقر وجهل واستعباد ، إنما نجمت عن فقدان الانسجام بين التطورات المادية الراهنة من جهة ، وبين مجموعة التشاريع الحقوقية الممنوحة للأفراد من جهة أخرى . وهكذا فأكثر البشر ، في عصرنا الحاضر لاينتفعون بالتقدم المادي الملحوظ في شتى ميادين الاقتصاد العام .

وعكس ذلك تماماً حدث في صدر الاسلام . فمن بين الاسباب القوية التي جعلت المرأة العربية ، لم تنتفع باكثر الحقوق الممنوحة لها ، أن النفس الاخلاقية السامية المتمثلة في الرسول العربي ،

لم تكن تنسجم معها ظروف الحياة المادية التي كان يعيشها المجتمع العربي .

وإذن فالانسجام ليس شرطاً من شروط الجمال المحض فحسب ، لكنه إلى ذلك ضرورة قصوى لتحقيق الاستقرار والهدوء في المجتمع السليم .

وبعد ، فهل تسوق هذه الآراء إلى القول بأن الاسلام كان حركة حيادية بالنسبة للمرأة ، وأنه لم يحقق لها تقدماً ، وأنها لم تفد منه شيئاً ؟ ! .

الحق ان المرأة ، كالأمة العربية ، وكسائر الانسانية مدينة للاسلام بالشيء الكثير ، إذ لولا تعاليمه السمحة التي اتصلت بالالزام الشرعي ، ولولا دعوته الحارة التي اتصلت بالمؤيد الأخلاقي لكانت ظاهرات عصر الابوة في المجتمع العربي ، هي نفسها لدى كل المجتمعات الاخرى . كدنا نقول بأن الاسلام حادثة فريدة في التاريخ .

لقد كانت المرأة ، عند اليونان ، خلال عصر الابوة ، تعد من متاع البيت ، وكانت عند الرومان تدخل تحت القدرة الابوية لزوجها ، فيتصرف بها تصرفه بالسلع والاشياء .

وإذا ذكرنا أن الرومان واليونان من أرقى الشعوب القديمة ، التي مازال الامم تغترف عن تشاريعها وفلسفاتها ، أمكن لنا بسهولة ويسر أن ندرك وضع المرأة لدي كل الاقوام الاخرى ! .

لقد كسر الاسلام من حدة عصر الابوة ، فانقذ المرأة من الرق والعبودية ،وحفظ لها كرامتها وصونها ، ورفع عنها خرافةالقصر . لقد كان لها من الوجهة الحقوقية اكثر مما كانت الثورة الفرنسية لامرأة القرن التاسع عشر ، واكثر مما كانت الثورة السوفياتية لامرأة القرن العشرين ! ...

المرأة الغربية

القرون الوسطى :

إذا عرفنا أن القرون الوسطى . التي تمتد من انقراض الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٥ م ، إلى فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ م هي مرحلة من ابشع مراحل التاريخ البشري ، بما سادها من الظلم والظلام ، والجهل والاستبداد ، أدركنا يسر حال المرأة في تلك العصور السود :

أما المسيحية ، وإن فرضت طاعة المرأة لزوجها ، فقد كانت بها رفيقة وعليها مشفقة . ولكن رجال الدين المسيحي ، زاهدين أو متزاهدين ، أو بالاصح متأثرين بأفكار عصر الابوة ، دعوا إلى جفوتها والانصراف عنها ، زهداً بالدنيا وميلاً إلى الاخرة ! .

بيد أن هذا الاتجاه قد حاد عن غايته ، وانصرف إلى احتقارها والنقمة عليها ، إذ اجتمعوا في « ماكون » عام ٥٨١ وبحثوا في مؤتمر صاخب « هل المرأة نفس ، وهل يجب أن تعتبر من المخلوقات

البشرية ؟ ! . ولايحسبن أحد أنهم أرادوا إلى تصنيفها مع الملائكة ، إذ بأغلبية ضئيلة جداً أقروا لها حق الحياة ! .

أما مجمع قرطاجة فقد كان أوفر تساهلاً ، اذ اكتفى بمنع تعليمها ، وتحريم دنوها من الهيكل ! .

واشتدت الحملة على النساء في عصر انتشار الرهبانية ، وافتن رجال الاكليروس بصياغة التعابير التي ، إن توفر فيها الخيال الشعري ، ينقصها الفكر واللياقة والصدق ، وهي في أي حال ، غزل موتور حاقد : فهي باب جهنم ، منظرها شر ، وصوتها كريه ، ولمسها مخيف ! .

وقال القديس « سيبريان » : صفير الضب آنس من غناء النساء ! والمرأة كالشبكة : فابها فخ ومداها قيود ! .

ومن تعاليم الكنيسة : ان الغدر صفة التنين ، والمكر صفة الافعى ، والمرأة قد جمعت الرذيلتين ! . وكثيراً ماتساءل اغسطينوس : لماذا خلق النساء في هذا العالم !

وهكذا انصرفت المرأة إلى أعمال البيت ، تمارس الزهد ، وتسبح بحمد ربها وزوجها ، وأسياد زوجها : أصحاب الاقطاعات ، ورجال الدين .

ولكن أمراً هاماً حول مجرى هذه الاحداث : لقد بدأت حضارة العرب ، تغزو الغرب بطريق الاندلس . وقد سجل المؤرخ « بيبل » ذلك بقوله : لولا المدنية العربية ، لبقي عصر الاقطاعات

الطويل مجدباً قاحلاً ، ولكان عهد الرجعة إلى البربرية ، غير أن المدنية الاسلامية الزاهرة ، أصبحت فيه اداة وصل بين مدينة الرومان واليونان ، وبين مدنية الغرب التي انبعثت في عهد النهضة ». وافادت المرأة الغربية ، كثيراً من هذا التحول ؛ يقول لوبون : « فمن العرب ، استمار سكان اوروبا ، مع اخلاق الفروسية ، احترام المرأة اللطيف ، الذي تعلمه شرائع العرب . . . وبفضلهم ارتفعت المرأة من مقامها الوضيع ، إلى مقام اسمى . . . »

والواقع أن المرأة الاندلسية ، قد ضربت بسهم وفير في العلم والأدب والسياسة ، خاصة في زمن الحكم الثاني ، وحسبنا أن نذكر كاتبة الحكم ، وولادة بنت المستكفي « سافو قرطبة ! » .

وذكر «أجاييف» المؤرخ الروسي ، أن الاندلسيات كن يحضرن الاحتفالات والالعاب العسكرية ،والصلاة في المساجد . وأن نفوس الشعراء ترتاح بوجودهن إذ كن كزهر الربيع الزاهر في الرياض الفيحاء ، بينما الفرسان يخوضون المعركة بسم الله ،متحمسين بذكر حبيباتهم . ويؤيد ذلك قول ابن رشد فيلسوف العرب الاكبر : «وإن المرأة لاتختلف عن الرجل ، من حيث الطبيعة ، بل من حيث الدرجة فهن قادرات على ممارسة الفلسفة ، وخوض المعركة ، وحكم الجمهورية . . ألا رأيت الى إناث الكلاب كيف تحرس إحداها القطيع ! » . . .

إن هذه المكانة الرفيعة التي تبوأتها المرأة الاندلسية ، لم تكن

مألوفة عند أبناء الغرب ، بيد أن الشهامة والعفة والتضحية ، وغيرها من أخلاق الفرسان قد دخلت الغرب غازية عن طريق الأندلس ! .

وإننا إذ نذكر ذلك ، فلا ننسي فضل الأديرة النسائية في هذه القرون المتوسطة ، في رفع شأن المرأة وما أتاحت لها من تربية وتعليم .

لقد برع بعض النساء في العلم والادب ، وخرج بعضهن في اثر الحروب الصليبية ، وتعلمن المداواة وتضميد الجراح ... كما أن جان دارك لايمكن ان تنسى في تاريخ فرنسا .

لقد نالت المرأة بنتيجة ذلك بعض الحقوق كالارث ، واصبحت صالحة لبعض التصرفات المدنية . غير أن هذا لم يكن عاماً بل مقتصراً على الشريفات اللائي شاع بينهن التفسخ ، بينما بقيت نساء الطبقات الأخرى يرسفن في أغلال الجهل ، وقيود العبودية .

عصر النهضة :

النهضة ، إن هي الاثورة الفكر العلمي ، على طريقة الفكر الجامد المتمثلة في السكولاستيك ، الشائعة في القرون الوسطى .

لقد كانت النهضة حركة رائعة ، بعثت الحياة الفتية في الغرب الجامد فنشط للعلوم والاداب ، ونهض للتحسس بالجمال والفن .

وقد أثرت في بعث هذه الحركة عوامل داخلية وخارجية . فأما الاولى ، فمردها احتكار رجال الدين المسيحي للمعارف التي

كانت تكتب باللغة اليونانية واللاتينية اللتين كان يجهلهما سواد الشعب في الغرب ، كما أن طريقة السكولاستيك كانت تحد من نمو المعرفة وتطور الفكر العلمي . وقد دعا معظم الباحثين إلى هدم هذه الطريقة ، وانشاء أخرى مستجدة . وأما العوامل الخارجية فتتمثل في احتكاك الغرب بالأندلس ، وتأثره بالشرق اثناء الحروب الصليبية ، وهجرة علماء بيزنطة إلى ايطاليا بعد ما فتح الترك القسطنطينية .

ويجثم تحت هذه الاسباب كلها ، المحرك الرئيسي الاول لكل الأحداث التاريخية ، نعني العامل الاقتصادي المتمثل هنا في سيول الذهب التي تدفقت على أوروبا ، بعد اكتشاف العالم الجديد ؛ واختراع الطباعة ، هذه الالة التي سهلت انتشار المعرفة بين جميع طبقات الشعوب الأوروبية .

وقد ينهض ، هنا ، بعض المتطوعين للدفاع عن تناقضات الانظمة القائمة ، ليلفت النظر إلى أن سيول الذهب كانت تتدفق على اسبانيا ، وأن الطباعة قد اخترعت في المانيا ، بينما يلاحظ أن النهضة شعت في أرجاء ايطاليا . وعندئذ نحيل هؤلاء إلى بعض تواريخ الاقتصاد السياسي ليروا إلى مدى الازدهار المادي الذي كانت ايطاليا مسرحاً له ، بسبب موقعها التجاري الهام ، بين الشرق ودول أوروبا الغربية .

لقد تميز عصر النهضة بالاقبال الشديد على المسرات والملذات ، وكان رد فعل صحيح للحرية المطلقة التي كانت وقفاً على الطبقات

الارستوقراطية الاقطاعية في القرون الوسطى .

وقامت الكنيسة تدعو بحماس شديد ، لتقييد المرأة ، دفعاً للفساد وذوداً عن الفضيلة ، وصوناً للاخلاق ! . . ولم تعدم أنصاراً من الرجال والنساء ، يساعدونها لبث دعوتها وتمكينها من النفوس .

وجاءت اللوثرية ، التي تأثر صاحبها بتربية قاسية نشأ عليها ، تدعو إلى قصر المرأة على الخدمة المنزلية ، وبعض العلوم البسيطة . كما أن هذه الحركة البروتستانتية ابطلت الرهبانية ، وألغت معها أديرة النساء ، التي كانت تتيح لهن بعض العلوم ، ويسيراً من الحرية . وهكذا ، تراجعت المرأة في مطلع حركة الاصلاح الديني . ولكن النهضة تيار جارف ، لاتلويه عن عزمه دعوة ، ولا ترده مناهضة ، فشاركت المرأة في الحركة الأدبية والفنية ، وانشأت مجالس للشعر والعلم ، يغشاها الفنانون والعلماء يتناقشون ويتناشدون .

القرن السابع عشر :

وكان القرن السابع عشر ، والكنيسة لم تتراجع عن دعوتها ، ورجال الاصلاح يمعنون في فسادهم ، ويدعون الى خنق الحرية وتقييد المرأة ؛ ويدلون في ويتنبرغ بخمسين برهاناً على ان المرأة ليست انساناً ! . بيد ان هذه الضجة المصطنعة ، كان لها رد فعل عنيف ، فنهضت المرأة تدافع عن حقوقها السليبة ، وحريتها المخنوقة ، نذكر مثلاً ، مدام دي مونتينون في فرنسا ، وماري استبل في انكلترة . كما أن الصالونات النسائية بدأت تحتل في هذا القرن مركز الأديرة الرهبانية ! . واشتهرت المركيزة دي رامبوييه بافتتاح منتدى

أدبي في دارها ، يؤمه كبار الادباء والشعراء يسمرون ، وينشدون ويبحثون في جمال اللفظ وجمال المعنى .

القرن الثامن عشر :

لقد بدأت تظهر في هذا القرن ، والقرن الذي مضى تناقضات النظام الاقطاعي ، وبدأ التمهيد لظهور النظام البورجوازي الفتي ، على انقاض النظام الشائخ . إن هذا النظام الاقطاعي المتفسخ كان مايزال يلح على جعل المرأة منزوية في دارها ، وكانت الآراء على ترك المرأة بعيدة عن التعلم والحياة العامة . وآراء المفكرين والكتاب في مشكلة المرأة ، تؤلف جزءاً من آرائهم في الكون والمجتمع والسياسة . فيرى غوته : « حسب الزوج أن تكون امرأته جميلة الجسم والروح ، وتحسن ادارة المنزل »

وغريب غاية الغرابة ، أن يُحاول عام ١٧٦٦ أن يبرهن على أن المرأة ليست من المخلوقات البشرية ، في أحد المؤلفات !.

أما فنيلون فكان يرى أن واجب المرأة يتلخص بالمحافظة على راحة الاسرة ، وتربية الاولاد ، تحت ارشاد الزوج ! . لاشك أنه حل ارستقراطي يمثل نظام الاقطاعية المندحرة . أما روسو المبشر بمحاسن الحياة الفطرية ، فقد بدا متناقضاً مع نفسه في بعض مؤلفاته ، بيد أن رأيه العام في المرأة ، هو أن تحسن الحب والامومة . أما كوندورسه ، الذي ساعدت فلسفته المادية الجريئة على هدم النظام الاقطاعي ، وبناء النظام البورجوازي ، فكان

يرى أن ذكاء المرأة يكافيء ذكاء الرجل ، وانه ينبغي أن تتعلم المرأة العلوم التي يتعلمها الرجل ، كما انه طلب في الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢ اقرار حكم التعليم المجاني الاجباري لكافة أبناء وبنات فرنسا على قدم المساواة .

ونشطت الحركة النسائية ، على الرغم من كل دعوة مضادة فدخلت المرأة الجامعة وأظهرت ضروباً من القدر والكفاءات في ميادين الآداب والعلوم والطب والرياضيات والفلك . كما أن المنتديات التي افتتحها النساء في هذا القرن ، ساعدت على نمو الفكر الثوري الذي تغلل بين كل الطبقات الواعية في فرنسا ، والذي ساعد على انقلاب ١٧٨٩ . وبعد ان كانت صالونات النساء في القرن الماضي تبحث في جمال لفظة ، أوجمال تعبير ، أصبحت صالونات القرن الثامن عشر تبحث : لماذا يجب ان يكون الانسان حراً . ومن الذي جعل الفروق خالدة بين الناس ! .

وهكذا نرى ان المرأة رغم الدعوات والتبشيرات الرجعية ، كانت تتقدم بخطى وئيدة نحو الحياة العملية والفكرية ، ذلك ان الاقطاعية ، النظام الاقتصادي والاجتماعي ، الذي كان له ما يبرره في القرون الوسطى ، بدأت تتزعزع أركانه امام البورجوازية المتفتحة ، حتى لفظ انفاسه الاخيرة على قرقعة جدران الباستيل المتداعي !

القرن التاسع عشر !

إذا كانت ثورة ١٧٨٩ ، نقطة تحول في تاريخ البشرية ، كما شاء أن ينعتها « غوته » ،في صبيحة انتصار معركة فالمي ، فما اجدرها أن تكون نقطة تحول في تاريخ المرأة ، هذه التي تمثل نصف البشرية . لقد كانت الثورة ، ضربة قاسية على الرجعية والاقطاعية ، والتحكم والاستبداد ، وقد أعطت حقوق الانسان والمواطن ، وسوت بين جميع الناس أمام القانون ، وكان في احداثها ظروف ملائمة ، لتظهر خلالها كفاءة المرأة ومواهبها . ومن يرى إلى تلك الواقعات الضخمة التي رافقت الثورة يرى كيف خاضت المرأة المعركة ، لتساهم في ظفر الجمهورية واندحار الحكم الملكي المطلق ! .

غير أن الاسرة كانت ، في نظر « ابن الثورة العاق » نابليون ، معسكراً ، السيادة فيه للرجل ، والخضوع نصيب المرأة المكلفة بانتاج رجال للحرب ! .

لقد سألته مدام دي ستال ، عن افضل امرأة بنظره ، فأجاب : « هي الاولد من غيرها ! » ثم مالبث أن نفى هذه السائلة المزعجة ذات الصوت المرتفع ! .

وقد دس نابليون في القانون المدني الفرنسي ، الذي أثر في أكثر القوانين المدنية الحديثة ، في الشرق والغرب ، الفصل / ١٢٣ / الذي يقضي على المرأة بطاعة زوجها ، وعدم تمكنها من التصرف بأموالها ، والتعاقد الا برضا هذا الزوج ، وليس لها الحق بالوصاية

على يتيم إلا إذا كان ابنها أو حفيدها . هذا كما انه حرم على البنات التربية القومية ، وحظر عليهن العلم العملي .

وقد أثرت آراء نابليون في كثير من الأدباء والمفكرين ، فانكر « دي متر » على المرأة كل كفاءة ، ونعتها بريدون بالعقم الفكري ، وزعم شوبنهور حكيم الرحمة : بانها طويلة الشعر ، قصيرة العقل ؛ وذهب فيلسوف القوة نيتشه ، الى ان الرجال الذين يطالبون بانصاف المرأة ، هم ذكور ضعاف العقول ! . لقد أخر نابليون قضية المرأة كما اخر قضية الحرية . بيد أنه ماأخذ نجمه بالأفول ، حتى قام انصارها يدافعون عنها بحزم وجرأة ، كما هبت هي ايضاً للدفاع عن حقها في الحياة والحرية . وعام ١٨٦٨ فتحت جامعة باريس ابوابها للطالبات ، وانتشر التعليم الابتدائي للاناث في المدن والقرى وازدهرت الأندية النسائية التي شعت عنها الحركة الابداعية في الأدب الفرنسي : كنادي مدام نوديه الذي كان يتردد إليه شاعر الرومانتيكية الفرد دي موسيه

ان انتشار المعرفة خلال القرن التاسع عشر ، ونبوغ المرأة فيها ، جعلها تطمح الى مساواة الرجل ، ولكن عائقاً هاماً كان يحول بينها وبين هذه الامنية : إنه العائق الاقتصادي .

وكانت ثورة الآلة وانقلاب الحياة الاقتصادية ، فنزلت المرأة إلى ميدان العمل ، بدافع الضرورة المادية ، وزاحمت الرجل في

الزراعة والصناعة والتجارة، وبلغ عدد العاملات الفرنسيات عام ١٨٩٦ ، ستة ملايين ونصف مقابل اثني عشر مليوناً من الرجال ! . ولكن جماعة من علماء الاقتصاد ، حاولوا الوقوف في وجه هذه الظاهرة الفذة ، جاهلين أو متجاهلين مبادىء التطور العامة ،فكان نصيبهم الخذلان والفشل . ووضعت فرنسا عام ١٨٤١ شرعة لحماية العمال من الجنسين ، وقد عدلت هذه الشرعة عام ١٨٧٤ ،وفي عام ١٨٩٢ وضعت نظاماً آخر أكثر دقة وإحكاماً وشمولا .

وحذت معظم الدول الاخرى حذو فرنسا ، لتشابه الظروف الاقتصادية في هذه البلدان الاوربية والاميركية ، فشهد القرن التاسع عشر الى جانب ثورة الآلة ، ثورة اجتماعية غيرت من حياة المرأة ، وبدلت من حقوقها وواجباتها .

القرن العشرون :

يقول أحد المؤرخين ، في معرض حديثه عن تقدم الحضارة خلال القرن الماضي : « لو تيسر لأحد ابناء النصف الأول من القرن التاسع عشر أن يعود إلى ماقبل ثلاثة آلاف عام ، لما أنكر كثيراً من حال ذاك العصر ؛ بينما لو تيسر لهذا الرجل أن يعيش حتى نهاية القرن التاسع عشر لما صدق مايرى ... » .

إن هذه الفكرة ترد كلها ، في مجال بحثنا عن تطور للقضية النسوية في القرن العشرين . فقد شهد النصف الأول لهذا القرن الذي لانزال نعيش في غمراته ، قفزة نسائية رائعة تفوق

بقوتها وتصاعدها، بمجموعة الخطوات البطيئة، التي حققتها هذه الحركة على مدى نظام الابوة كله. وقد تراجعت في هذا القرن كل الافكار الضالة المضلة التي كانت تبرز لدى كل دعوة للمساواة بين الجنسين. لتنزوي في اطواء الكتب الأدبية أو الفلسفية، وتحل مكانها أفكار المساواة والحرية. وقد فرضت أحداث هذا القرن على المرأة، ان تنزل إلى الحياة العامة، فظهرت كفاءات كانت خبيئة، وقدرات كانت متجمدة عن العمل المثمر المبدع، لاعتبارات مشبوهة لاتقف على قدميها أمام وقائع الحياة ! .

ولسنا الآن في مجال التبسط بحث التطورات المستمرة الصاعدة للحركة النسوية في كل بلد من بلدان الغرب، وإنما نرى بلمحة خاطفة إلى أبرز حوادث هذا القرن .

إن مراحل هذه النهضة الشاملة تتمثل بالتعليم أولاً ثم العمل ثانياً، ثم المساواة السياسية المطلقة ثالثاً . لقد أقبلت المرأة الفرنسية على مختلف المهن والصناعات والوظائف تثبت كفاءتها وتؤيد حقها. ولذلك فقد تدخلت الحكومة خيفة من الاضرار الاجتماعية، وحددت العمل الليلي، والراحة الاسبوعية، والصحة في المعمل، مما هو وارد في تشريع العمل . وكذا كان الحال تقريباً في بلاد الانكليز . أما اميركا فهي أيضاً شهدت انقلاباً في حال المرأة، فما أطل عام ١٩٠٥ حتى كانت تؤلف ثلث طلاب الجامعات أو أكثر ! . وانحازت الاميركية إلى العلوم العملية، فاشتهر منهن «نساء أعمال» . وتطلع علينا بذلك نتيجة هامة، وهي فقدان

التخصص الطبيعي ، الذي يلح كثير من كتاب الشرق ، على جعله حقيقة خالدة ! .

وحدثت الحرب الكونية الاولى ، فحشد الرجال إلى القتال ووجدت المرأة نفسها أمام تبعات جسام ، وكانت تجربة ممتازة ، فرضتها ظروف الحياة لتكون الحكم الفصل بين أعداء المرأة وانصارها . فعملت المرأة في الزراعة والصناعة ، وفي جميع مرافق الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ودخلت الجيش ممرضة فأظهرت كفاءة وحماسة ، وانخرطت في ادارات الجيوش المحاربة ، واشتركت أيضاً في أعمال الطيران ! .

ووضعت الحرب أوزارها وعادت المرأة إلى النضال من جديد ، ولكنه كان في هذه المرة أقل جهداً ، إذ أقرت لها المجالس التشريعية في البلدان الديموقراطية حقوقها المدنية والسياسية ، ودخل النساء إلى المجالس البلدية ، والندوات النيابية . وهكذا فالمرأة في بلدان الغرب تكاد تساوي الرجل في علمه وعمله . وكل يوم يمر تحرز فيه انتصاراً جديداً وتنتزع من « السيد المطاع » حقاً سليباً . غير أننا لاننسى ان نسجل بأن العالم الرأسمالي يتلكأ في أعطاء النساء كافة حقوقهن ، ذلك لانه يخشى فرط الانتاج ، إن اقبلت المرأة كالرجل على الصناعة . أما المنطق السليم ! فيقضي بتنظيم التوزيع لرفع ذلك المحذور ، لابفرض الانزواء على المرأة التي اصبحت بحاجة ماسة إلى عمل يقيها مذلة السؤال وعار النفقة ! . وحكاية اغراق

والبن وحرق ، القمح والقطن ، ليست مجهولة لدى الناس ، ولا نظن أن المرأة يد فيها ! . .

وبينما بقيت المرأة الغربية تناضل بعناد لاستكمال حقوقها ، وتوطيد حريتها ، قفزت المرأة الروسية ، التي كانت في عهد القيصرية جاهلة فقيرة ، مستعبدة ، إلى مستوى يحسدها عليه الغربيات ، العريقات في الحضارة ، المتمرسات في النضال التحرري . لقد رفعتها ثورة « اكتوبر » إلى مرتبة الرجل وسوت بينهما في الحقوق والواجبات ولذا نرى لزاماً أن نبحث بعض الاسهاب قضية المرأة في الاتحاد السيوفياتي ، لأنها الصفحة الاخيرة التي انطوى معها نظام الابوة ، ليظهر نظام المساواة الكاملة .

المرأة في العالم الاشتراكي :

إن ثورة ١٩١٧ في بلدان الاتحاد السوفياتي ، نقطة تحول عظيم في حياة الانسانية جمعاء . ان جدار الرجعية والجمود الذي كان يحميه القيصر واعوانه رجال الاقطاع ، وتذود عنه المشانق والسجون والمنافي ، قد جرفه تيار الثورة الطامي ، فانهار على رؤوس حماته دفعة واحدة ، ليفسح مجالا لنظم وتنظيمات ، وليدة الحاجة إلى الحياة الكريمة الحرة ، نقلت سدس العالم إلى مرحلة الاشتراكية الكاملة ، مرحلة الانسانية المتفوقة . . .

لقد زالت . بزوال القيصرية ، جميع ضروب التحكم والاستبداد : تحكم القيصر بشعبه ، واستبداد الروس بالاقوام التابعة لموسكو . وانقضت سلطة رجال الاقطاع على الفلاحين ، عبيد الأرض . وانحسرت

مظالم ارباب العمل ، عن عمالهم ومستخدميهم . وكذلك تقلصت سيطرة الرجل على المرأة التي اصبحت « مواطناً » له جميع الحقوق وعليه جميع الموجبات ! . لقد أفسح رجال الثورة وقادتها الذين قاموا بتنظيم الاتحاد السوفياتي ، للمرأة مجال الدخول الى جميع ميادين الحياة ، وحطموا الحاجز بينها وبين العلم والعمل ، فزالت الفروق الجنسية التي كانت توصف بالخلود والاطلاق ، كما حذفت الفروق الحقوقية بين الاقاليم والعناصر والأديان ، بعد أن كانت توصف هي أيضاً بالخلود والاطلاق ! .

لقد وقعت المرأة السوفياتية معاهدة برست ليتوفسك مع من وقعها ، واشتركت في الوفود السياسية ، ودخلت الجندية ، وهكذا تحققت بعض نبوءة المفكر العربي ابن رشد : فهن قادرات على ممارسة الفلسفة ، وخوض المعركة ، وحكم الجمهورية ! . . صدق الفكر العربي . لقد نصت المادة / ١٢٢ / من دستور الجمهوريات المتحدة السوفياتية : « للمرأة في الاتحاد السوفياتي حقوق متساوية مع الرجل في ميادين الحياة الاقتصادية والعامة والثقافية والاجتماعية والسياسية ، ويكفل للنساء إمكان ممارسة هذه الحقوق ، إعطاؤهن حقوقاً متساوية مع الرجل في العلم ، والاستراحة ، والضمان الاجتماعي ، والتعلم ، وحماية الدولة لمصلحة الام والطفل ومنح المرأة إجازة قبل الولادة وبعدها بأجر كامل ، ووجود شبكة واسعة من بيوت الولادة ،

ودور الحضانة ورياض الاطفال » .

ونصت المادة / ١٣٧ / على الحقوق السياسية : « للنساء الحق في أن يُنتخبن ويَنتخبن على قدم المساواة مع الرجال » .

وعندما شن النازي هجومه الصاعق المحموم على وطن الاشتراكية ، عملت السوفيانية ، من أية قومية كانت ، في المنجم والمعمل والحقل وظهرت منتجة بارعة . كما انها تفوقت في العلوم القائمة على المشاهدة والتجربة كالطب والهندسة والكيمياء . وساهمت في عراك البر والبحر والجو في قتال عنيد ضد أضخم آلة للفتح والسيطرة ، ظهرت خلال التاريخ .

ولا عجب إذا قدرت الاشتراكية أن تمحو فروق « الكيف » المزعومة بين الرجل والمرأة . فالسوفياتية نالت حقوقها كاملة غير منقوصة ، وتيسر لها ماتيسر للرجل من علم ورياضة وتدريب : لقد شعرت بكرامة المواطن فعرفت كيف تتحمل مسؤولية المواطن ايضاً . وإن هذه النتيجة لمنسجمة كل الانسجام مع نظام يعاقب على استغلال الانسان للانسان ، ويسوي بين الناس جميعهم على اختلاف عناصرهم ومعتقداتهم والوانهم ، في الحقوق والواجبات ، ويجعل للانسان وحده القيمة المطلقة .

المرأة في الوقت الحاضر :

إذا كانت الحرب العالمية الاولى ، قد ساعدت على تحرر المرأة وتقدمها

فالحرب العالمية الثانية كانت أقوى أثراً وأبعد مدى في هذا المضمار .
لقد ساهمت المرأة في الحرب بنصيب وافر ، في الجيش والطيران والتمريض والمداواة وإدارات الجيوش ، وأخذت محل الرجل في المعمل والمتجر والمدرسة ، بعد أن حشدت ملايين الرجال للاعمال العسكرية . ولما كانت قد اثبتت كفاءتها في كل ميدان ، فقد نالت من الظفر مايتناسب والجهود التى بذلتها ، فى الانتصار على البربرية الحديثة ، عبادة الدم والسيطرة ، على النازية الفاشية .

وقد ساعد المرأة على نيل حقوقها المدنية والسياسية بعد هذه الحرب الضروس ، عدى عن مشاركتها في الحرب ، ونبوغها في كل علم وفن ، انتصار الاتحاد السوفياتي ، ودخوله المسرح الدولي ، ونجاح الاحزاب الاشتراكية والشيوعية في مختلف الاقطار الغربية ، هذه الاحزاب التي تهدف في مبادئها إقامة المساواة بين الجنسين ، دون خوف من فرط الانتاج ، أو كساد المصنوعات ، أو أزمات البطالة ، لأن لهذه حلولاً تختلف عن الحلول التي أجهد فكره فيها الراهب البروتستانتي : مالتوس ! .

لقد اصبحت المساواة بين الجنسين ، في الحقوق والواجبات على مختلف انواعها ميزة تطبع العصر الحديث في البلدان المتمدينة. وجاءت شرعة الامم المتحدة تؤيد وتثبت هذه المساواة فقد نصت المادة الأولى من مبادئ وأهداف هيئة الامم المتحدة في سانفرنسيسكو في فقرتها الثانية مايلي :

«... وتحقيق التعاون الدولي ، على حل المشاكل الدولية ، ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والانسانية ، وعلى اشاعة وتشجيع احترام الحقوق البشرية والحريات الاساسية لكافة الناس ، دونما تمييز بين الاجناس واللغات والأديان ، او تفريق بين الرجال والنساء» .

والمادة الثامنة منها على ما يلي : « لاتفرض المنظمة أي قيد يحد من دخول النساء والرجال ، ضمن شروط متساوية ، في جميع الوظائف ، سواء أكان ذلك في الفروع الرئيسية ، أم في الفروع الثانوية » .

وقليل من الملاحظة ، يرينا أن تلك التطورات الهائلة من مؤتمر ماكون الى مؤتمر سان فرنسيسكو ، ليست عبثاً ، وإنما تنبئنا أن نظام المساواة سيصل إلى غايته في مدة وجيزة ، إذا لم يكن قد وصل إلى هذه الغاية فعلاً . اللهم إلا إذا اعتبرنا أن التاريخ عبارة عن ركام من الأحداث ، واعتقدنا أنه من الممكن مثلاً ، أن ينبعث نظام الرق والاقطاع من جديد ! .

التعليل العلمي

لوضع المرأة في التاريخ

يلوح لبعض الباحثين في علم الاجتماع ، أن ثمة فروقاً خالدة بين الرجل والمرأة ، وأن صفات ومميزات تطبع كلاً منها بطابع خاص . وقد ينصحون للمرأة ، بأن تؤمن بتلك الفروق ، إذ لا أثر للثورة في قلب الخصائص المطلقة ، والأحداث الثابتة ! . .

ان هذه الاحكام التي يرسلها هؤلاء الباحثون تستند الى مشاهدات تاريخية قاصرة على بعض الاقوام المعينة ، في مرحلة واحدة من مراحل التاريخ البشري ، هي مرحلة عصر الابوة . لقد رأينا فيما سبق ان النظام العائلي مر بمراحل كثيرة ، منذ نشوء الخليقة حتى عصرنا الحاضر ، وقد قسمنا تلك المراحل على اختلافها الى ثلاث : الامومة ، والابوة ، والمساواة . وقد رأينا ان الامومة سيطرت في عهد المشاعة الابتدائية ، عندما لم تكن قد ظهرت بعد ، الى عالم الارض ، فكرة التملك الفردي . وان الابوة سيطرت بعد انتقال الشعوب من الحالة العشائرية الى الحالة الحضارية . وان المساواة مرحلة اخيرة ، يمكن أن يهدأ فيها النوع البشري عن النضال بين الجنسين ، لينصرف

الى إبداع المثل الاعلى للانسان الكامل .

إن هذه المراحل نفسها ، لم تفرض على البشرية فرضاً ، ولم تكن وليدة الصدف والمفاجاءات ، وإنما نتجت عن اسباب معروفة معينة ، ولابد لنا من معرفة هذه الاسباب المحركة للتطور ، الدافعة للانتقال من مرحلة إلى اخرى ، ومن نظام الى ثان .

يلاحظ عند دراسة الاقوام والشعوب الابتدائية ، أنها لم تعرف شيئاً عن النظام العائلي ، وان أول شكل لهذا النظام إنما كان يتمثل في الفوضى الجنسية . ويلاحظ أيضاً ، أن فكرة التملك الفردي ، لم تكن قد ظهرت بعد ، فالأرض وماعليها من حيوان وثمار ملك ابنائها ؛ هنا ساد نظام الامومة ؛ والام فيه ، لها على اولادها حق النسب ، وهي التي تحتضنهم وتنشئهم . وساعد على تمكين نظام الامومة ، في عهد العشائر الطوطمية ، انصراف الرجل للصيد ، واشتغال المرأة بالدفاع عن الاطفال ، واعمال الزراعة . ولكنه عندما أخذ الرجل يعود شيئاً فشيئاً إلى حقله ليزرعه ، واصطنع بعض الادوات لهذا العمل ، واستقل بقطعة من الارض ، بدأ نفوذه بالازدياد . ومع هذا الانقلاب في الحياة الاقتصادية نشأ تبدل في النظام الاجتماعي وبدأت روابط القربى تقوم على الدم بدلاً من الطوطم ، وظهرت العائلة بالمعنى المتعارف .

ومرحلة الابوة ، كالامومة ، عهد طويل ، يتميز بسيطرة

الرجل على المرأة واستبداده بها ، وقد أوحت سهولة معرفة الاحداث فيه ، إلى بعضهم ، الفكرة التي ألمنا اليها في مطلع هذا البحث ، وهي تفوق الرجل على المرأة ! .

لا ، ليست المسألة بما زعموا ، وانما تتلخص بان الرجل اعتاد لقوته أن يحكم ، والمرأة لضعفها أن تخضع ، ولعل من النافع لو ذكرنا بأن تلك القوة ، وهذا الضعف ، لم يكن مردهما تفوق ذهنه ، وانحلال تفكيرها ، وإنما كانا ناجمين عن سبب اقتصادي هام ، هو ملكيته لوسائل الانتاج ، وحرمانها من هذه الوسائل المنتجة . وعن ذلك كان حالها معه ، يشبه في قليل أو كثير ، حال عبد الأرض مع صاحبها ، أو حال العامل مع رب الآلة ، والعبد مع السيد ، والمدين مع الدائن عند الرومان ، أو حال المعوز مع المرابي في كل الازمان ! . ولا يندفع هذا الرأي بزعم من يزعم أن هذا التملك ، ينهض بحد ذاته ، دليلاً ساطعاً على تفوقه وضعفها ، ذلك أننا لسنا بحاجة لسرد تفاصيل كل المآسي والمهازل التي تمثلت في عهود الظلم والفوضى والتحكم.

وكما نجم نظام الرق والاقطاع والرأسمال ، عن تملك فريق لوسائل الانتاج ، وحرمان فريق آخر منها ، فكذلك ينبغي أن تفسر عبودية المرأة ، التي تحكم فيها الرجل واستعبدها ، وأصبح سيدها الآمر المطاع . وهكذا حدثت المأساة التي يجهد الفكر الحديث للتخلص

من نتائجها المخزية ، في اكثر بقاعه ومناطق نفاذ أوامره . وقد أشار الى ذلك القرآن الحكيم ، بآيته الكريمة : « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من اموالهم » — صدق الله العظيم .

ان هذه الظاهرة الاجتماعية الصحيحة ، من أن مالك وسائل الانتاج ، هو الذي يحكم ، ويستعبد ، ويسترق ، ويكون فيما يكون قيماً بشهادة القرآن العزيز . إن هذه الظاهرة ليست مقصورة على الانسان وحده ، بل هي تسيطر على عالم الحيوان ذاته . . . ألا رأيت الى العاملات من إناث النحل ، يطردن الذكور العاطلين إلى ظاهر الخلية ، بالرغم من التفوق العضوي لدى هؤلاء الذكور ، وبالرغم من هذه الذكورة التي لم تغن ولم تنفع .

ولم تضع ظروف حياة المجتمع ، من جهة ، ولا أنانية الرجل ، من ناحية ثانية ، أمام المرأة — لحسن حظها أو سوئه — مسائل تجعلها تخرج من تلك العزلة ، وتهجر هذا البرج العاجي ، الذي ابتكره لها الفنان الرجل ، والعالم الرجل ! . وترسبت في نفسها خلال عصور الابوة الطويلة ، طبقات من الشعور بالضعف ، وألوان من الايمان بالقصر ، ولم يتيسر لها استعمال ملكاتها الفكرية ، أو إنماء مواهبها المبدعة ، فآثرت الاستكانة ، وانطوت على ذاتها ، تحلم في سجنها القاسي الذي يئد المواهب ، ويذل النفوس الكريمة ، بما تطلع به عليها الأيام . . .

غير أن حال المرأة لم تكن واحدة خلال عهد الابوة ، وإنما كانت تختلف شدة وضعفاً تبعاً لتطور وسائل الانتاج .

ففي عهد الرق ، نلاحظ أن علاقة لاتنكر بين سيطرة السيد على عبده ، والرجل على امرأته ، والسلطان على شعبه . أجل فقد كانت المرأة في هذه الفترة من نظام الابوة ، تباع وتشرى وتعتبر «شيئاً» . أما في الاقطاع ، الذي كان ثورة على الرق ، فقد نشأت طبقتان : الاشراف مالكو الارض والفلاحون الاقنان . وانزوت المرأة في البيت ، تقوم بتربية أولادها ، والعناية براحة الزوج ، الذي لا يجب أن يغضب !

أما البورجوازية ، التي طوحت بالاقطاعية الشامخة ، فقد شاعت فيها المبادئ الديموقراطية وصار المبدأ الجمهوري ، تقريباً ، كأساس في الحكم ، وأصبحت الحرية والمساواة والعدالة اهدافاً سامية ، يثور في سبيلها الشعب على الطغيان والاستبداد . وقد طرأ على حياة العائلة بسبب تطور الآلة والحياة الاقتصادية تغير شديد ، فلم تعد وحدة تربوية واقتصادية ، إذ اضطر عدد كبير من النساء لأن يغادرن البيت الى العمل ، وهكذا بدأ يظهر لديهن «الحنين إلى التجوال» والصدوف عن «التثبت بالمكان» هاته الفكرة ، التي يرددها أدباء الاقطاع ! .

وكان عام ١٩١٧ ، فظهر فجر للبشرية جديد ، إذ ولدت فيه مرحلة المساواة الكاملة ، واطاحت ثورة اكتوبر بالاقطاعية والرأسمالية معاً ، وحطمت كل أشكال الاستبداد والتحكم ، ونالت المرأة على يدها

كل الحقوق المدنية والسياسية ، وألغيت الفروق الخالدة ، وتخلصت المرأة نهائياً من حكاية القصر الابدي ! .

وبعد فهل كانت هذه المساواة التشريعية بين المرأة والرجل ، وليدة « الارادة الحسنة » التي اتصف بها قادة الثورة ، وواضعو دستور العمال والفلاحين والجنود ، ام كانت وليدة « اليد السحرية العجيبة » ! مهلاً ، لاعجائب ولا سحر لقد ابطلت الثورة ماكية فئة للاراضي ، وماكية فئة اخرى لأدوات الانتاج والمعامل ،فاصبحت الملكية جماعية ، والعمل اشتراكياً ، والحكم شعبياً ، والدولة من وراء ذلك ، للاشراف والتنظيم : لقد خسر الرجل سيطرته على العبد والفلاح والعامل ، والمرأة أيضاً ! .

« هذه الارض لي ! » مبدأ صحيح لعبودية المرأة في مطلع عهد الابوة ، و « هـذه الارض لنا » مبدأ صحيح ، لحرية المرأة في مطلع عهد المساواة ، التي سينجر اليه العالم المتمدن جميعه في عالم الغد القريب . ان الاسرة الجديدة اصبحت محققة المثل الفكرية السامية ، من حرية اختيار ، وتفاهم مشترك ، وتعاون على التربية ، كما خلص المجتمع من آفات كثيرة من قضاء على العزوبة ، بتحقيق العمل ، والغاء للبغاء لعدم الحاجة ، وتراجع في الطلاق لقلة أسبابه الموجبة : أحداث خطيرة في تاريخ البشرية .

وهنا قد يتبادر الى الذهن سؤال وجيه : هل العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد المؤثر في التطور التاريخي ؟ الواقع أن العامل

obeikandl.com

المادي الاقتصادي ليس العامل الاوحد ولكنه الاقوى ، والاشد أثراً في تسيير التطور . ولكنه ، هو نفسه ، يخلق أوضاعاً اجتماعية معينة ، وقوانين تنظم حقوق الناس وواجباتهم ، وعادات واعراف تحدد عيشهم ، واعتقادات خلقية وقيم روحية توجه سلوكهم ، وكل هذه لاتلبث ان تصبح هي أيضاً ذات وجود مستقل وقوة فعالة ، تعمل بدورها مؤثرة في الواقعات المادية نفسها .

وقد ينهض أخيراً جماعة يذهبون بعيداً في السؤال عن المرحلة التي ستعقب المساواة . فالاستاذ ليتسارد مثلاً ، يؤكد أن المرأة ستعود الى حكم البلاد ، سواء أكان عودها خيراً أم شرا ، وربما قضي على الذكر البشري أن يشغل وظيفة ذكر النحل أو العنكبوت ! .

ونحن ليس من شأننا أن ندخل في هذه التفاصيل ، أو أن نتنبأ عن المستقبل ، وإن كنا نعتقد بان المساواة هي خاتمة المطاف التي سينصرف البشر بعدها ، لتحقيق مثل اخرى ، ما اكثرها ! .

اننا نعتقد أن المساواة ستبقى هي نفسها ، لاننا نعرف أن الانظمة ، إنما تنحل بانحلال أسبابها الموجبة : فنظام الرق انعدم بانعدام السادة ، وكذا الاقطاع مات بموت الاشراف ، والرأسمال يزول بزوال المستثمرين . أما نظام المساواة فلن يفنى ، لان حماته الشعوب ، وامل هؤلاء سيبقون مخلدين ، مادامت الشمس تبعث الحياة في عالم الارض ! .

openkandai.com